مجلة التاريخ المتوسطي. المجلد 07، العدد 01. شهر جوان 2025. ص: 369 - 387
P-ISSN: 2716-764X, E-ISSN: 2716-7747

ت. الارسال: 02 – 02 - 2025	ت. القبول: 11 – 04 - 2025	ت. النشر: 30 – 06 - 2025

العائد المعرفي التاريخي من رسالة الخليفة عبد المؤمن بن علي إلى أولي الحكم والمسؤوليات بالأندلس (543هـ/1148م) . قراءة تحليلية .

The historical knowledge derived from the message of caliph Abd al-Mu'min ibn Ali to the rulers and authorities of Al-Andalus (543 AH/1148 CE) - An analytical reading

رجالين كمال
جامعة الحاج لخضر باتنة1، الجزائر
kemel.ridjaline@univ-batna.dz

الملخص:

معلوم أنّ البحوث الجادّة في الحقل التاريخي تحديدًا قد تجاوزت الاعتماد على نمطٍ مصدري معيّن، بل تسعى إلى تتبع المعطيات التاريخية في مختلف المظان والمدونات؛ ككتب الرحلة والبلدان، أو مصادر التراجم والمناقب، أو مدونات النوازل والحسبة، ناهيك عن كتب الحوليات ومؤلفات الأدب السياسي، فالإحاطة الشاملة بالحيثية التاريخية المرغوب دراستها تستدعي الإلمام بكل ما له علاقة بها، حتّى وان كان المُدَون في أساسه غير رامٍ للمعلومة التاريخية، ولعلّ أبرز نماذج هذا الطرح ما تتضمّنه الرسائل الديوانية من عائدٍ معرفي تاريخي لا يقلّ قيمة عما تورده الأشكال المصدرية السابقة، ولهذا تهدف هذه الورقة البحثية في محورها الفرعي إلى الإفصاح عن موقع وعائد الرسائل الديوانية في قائمة المصادر التاريخية، في حين يكون المحور الأساس؛ رسم ملمح تاريخي لمرحلة انتقالية شهدتها دولة الموحدين، ارتكازًا على قراءة في مضامين رسالة الكاتب جعفر بن محمد بن عطية (ت 553هـ/1158م) الصادرة عن الخليفة عبد المؤمن بن علي الكومي (ت 558هـ/1163م) إلى أولي الحكم والمسؤوليات في بلاد الغرب الإسلامي سنة 543هـ/1148م، وهذا انطلاقًا من هذه الإشكالية: ما طبيعة العائد المعرفي الذي تُضيفه الرسائل الديوانية إلى الحقل التاريخي من خلال أنموذج الرسالة المُعالَجة؟، وإنّ الدّراسة الأمثل لطبيعة هذا الموضوع تقتضي انتهاج المنهج التحليلي بأليته النقدية، وهذا لما تحويه هذه الرسالة من معطيات إخبارية عن سياق تاريخي مضطرب من عديد النواحي، فإذا ما قيل العدوة المغربية؛ استُحضر العداء المرابطي الموحدي، وسلسلة التمردات والثورات الانقلابية على الحكم الموحدي، أمّا العدوة الأندلسية فلم تكن أحسن حالًا من نظيرتها في المغرب، فقد تفشت الآفات الاجتماعية والأخلاقية؛ من شرب للخمر، وقطع للسبيل، وبيعٍ للنّساء، وتعدٍّ على الأرواح، ولهذا وجب إخضاع هذه المادة التاريخية الواردة في صلب الرسالة للتحليل والنقد استئناسًا بالمصادر المُزامنة للحدث الموحدي على غرار كتاب "نظم الجمان"، "والحلل الموشية"، "و المن بالإمامة"، "والمعجب"، ومراجع لا تقل قيمةً عن المصادر السالفة، ومن بينها كتاب "البيان المغرب"، "وروض القرطاس"، وهذا قصد رسم صورة واضحة عن هذه المرحلة.

مضمون البحث لا ينفك عن الإطار العام لهذا الموضوع؛ بدءًا بالتأسيس المفاهيمي للفظة الرسالة في حقليها اللّغوي، والاصطلاحي التاريخي، ثمّ تبيان أنواعها وموضوعاتها، وما تحمله من إضافات معرفية في بناء الحدث التاريخي، كما تمّت الإشارة إلى المحاذير المُستوجب مراعاتها خلال الرجوع إلى هذه الرسائل، ليكون الشقّ الثاني قراءة تحليلية للرسالة محل الدّراسة وفق ما تُمليه الضوابط المنهجية؛ من تعريفٍ للنّص، وتحليله، والتّعليق عليه، ختامًا بالمستخلصات من تحليل هذه الوثيقة.

من نتائج هذا البحث أنّه يُبيّن لنا حجم العدوان المُسلط على ساكنة الأندلس من طرف أخوي المهدي بن تومرت ـ عيسى وعبد العزيز ـ وما آلت إليه أوضاع الحكم في هذه البلاد خاصة إزاء الّا مبالات من طرف الأشياخ والطلبة ومن صَحِبهم في الأمر والسلطة، ومن النتائج المُستوجب الإشارة إليها في هذا البحث كذلك، تلك الرغبة الجامحة من طرف عبد المؤمن في تحقيق الحق وإبطال الباطل، استكمالًا للمشروع الإصلاحي الّذي جاء به ابن تومرت، والّذي كان شعاره الأساس "الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر"، وهذا الّذي يقف عليه القارئ لهذه الرسالة من خلال ملاحظته لمسلكين سلكهما عبد المؤمن في خطابه؛ خطاب دعوي ترغيبي، وآخر تعنيفي ترهيبي، وإنّ هذا الاعتدال في الخطاب مردّه الأساس إلى الرغبة في إدامة الملك الموحدي.

الكلمات المفتاحية: دولة الموحدين؛ الرسائل الديوانية؛ عبد المؤمن بن علي؛ المصادر الموحدية.

Abstract:

It is well known that serious research in the historical field specifically goes beyond relying on a specific type of source, rather, it seeks to trace historical knowledge across various books and blogs, with the goal of arriving at a comprehensive understanding of the historical aspect to be studied, even if the blogger is not primarily seeking to obtain historical information. Perhaps the most prominent example of this concept is the historical knowledge contained in the Diwani letters, which is no less valuable than that provided by reference books Therefore this research, in its subsection **aims** to reveal the status of the Diwani letters and their narratives within the list of historical sources. The central focus is to provide a historical overview of the transitional phase witnessed by the Almohad state, through an analytical reading of the contents of a letter written by Jaafar bin Atiya (d 553 AH/1158 CE), which was sent by Caliph Abd al-Mu'min (d. 558 AH/1163 CE) to the officials in Al-Andalus in 543 AH/1148 CE, This study is based on the following **research question**: What is the nature of the cognitive contribution that official correspondence, such as the letter in question, offers to the field of history? The optimal study of this subject requires adopting an **analytical method** with a critical approach, as the letter contains valuable information about a turbulent historical context. When the Maghreb is mentioned, the Almoravid-Almohad hostility and the series of revolutionary uprisings against Almohad rule immediately come to mind. In Al-Andalus, by contrast, social and moral ills were widespread, such as alcohol consumption, highway robbery, and the trafficking of women.

The research **content** falls within the general framework of the topic, beginning with a definition of the letter in its linguistic and historical contexts. It then clarifies its types and themes, and the cognitive contributions it brings to the construction of historical events. Attention is also given to the caveats that must be considered when approaching these letters and historical sources. The second part consists of an analytical reading of the letter under study, following a set of methodological guidelines. This includes defining the text, analysing and commenting on it, and concluding with the results drawn from the analysis of this document.

One of the **results** of this research is that it reveals the extent of the aggression inflicted on the people of Al-Andalus by the two brothers of Ibn Tumart - Isa and Abdul Aziz – as well as the general state of governance in the region, especially in light of the apparent indifference of the sheikhs and officials. Another significant conclusion is Abd al-Mu'min's desire to uphold justice, continuing the reform project introduced by Ibn Tumart, whose main slogan was "enjoining good and forbidding evil". This becomes evident to the reader of the letter through the dual rhetorical strategies used by Abd al-Mu'min in his discourse, both persuasive and intimidating, This balanced discourse stems from a desire to maintain stability within the Almohad state.

Key words: Almohad State _ Diwani messages_ Abdul Mumin bin Ali_ Almohad sources.

المؤلف المرسل: رجالين كمال، **الإيميل:** **kamelridjaline91@gmail.com**

مقدمة

غالبًا ما يقع الباحث في عَوز مصدري خلال معالجته أحد المواضيع التاريخية خاصة المتعلقة بسياق التاريخ الوسيط، وبصرف النّظر عما إذا كان هذا العوز من أُولي اليراع والسلطة، أم أنّه يعدّ ممّا فات المؤرخ فلم يجعل له نصيبًا من الكتابة يبقى أمرًا جدلًا وجب البحث فيه، ولكن هذا ليس مدعاة إلى التخلي عن البحث في مثل هكذا مواضيع بحجة هذا الفراغ، فالدّرس المنهجي في الحقل التاريخي يوجه الباحث إلى مختلف المصنفات والمدونات عساه يلقى ما يغطي هذا الفراغ، فتتكون بذلك دراسة متكاملة وشاملة، تقرّب الباحث من ملامسة الحقيقة التاريخية، ولعلّ من ضمن هذه الكتابات ما نقف عليه في الرسائل الديوانية، والّتي يُمكن إدراجها في مصاف المدونات المحايدة، الّتي تُنبئ بمعارف تاريخية لا غنى عنها في الدرس الأكاديمي على وجه الخصوص.

تعدّ الرسائل الديوانية من المرتكزات المهمّة في بناء الطروحات وتشكيل التصورات حول دولة الموحدين، فإلى جانب المصادر الأساسية قد يجد الباحث مبتغاه في الرسائل الديوانية. والّتي تعدّ الأداة التواصلية الفاعلة في هذه الدولة. فهي الّتي "تعرض لنا بيانًا مباشرًا دقيقًا منظمًا لأهمّ الوقائع الّتي وقعت في أيام الموحدين من تدابير سياسية وإصلاحات اجتماعية وغزوات وانتصارات حربية" (بروفنصال، الرسائل: ب)، ولعلّ رسالة عبد المؤمن بن علي (ت 558هـ / 1163م) إلى أولي الحكم والمسؤوليات بالأندلس خير نموذج على ما سلف ذكره، وهذا لاعتبارين؛ أوّلاهما: أنّها من الرسائل الطوال الّتي تُفصح في مضامينها عن عديد المجريات الحضارية الخاصة بدولة الموحدين، ثانيها: سياقها الزماني الّذي شهد مرحلة انتقالية مضطربة الأبعاد، ولهذا وقع الاختيار على هذه الرسالة من ضمن عديد الرسائل المبثوثة أو المجموعة في مختلف الكتب.

تكمن أهمية استنطاق رسالة عبد المؤمن بن علي أنّها تُمدنا بوافر المعلومات حول أحوال بلاد المغرب والأندلس على السواء، وواقع المسؤولين بين إنصافهم وإجحافهم للرّعية، كما أنّ الرسالة تُنير الباحث بسِيَر العمال المُعيّنين في مختلف الوظائف والمهام، علاوةً على معرفة ذلك الصراع السياسي القائم بين الخليفة عبد المؤمن بن علي وأخوي المهدي بن تومرت، ولقد تأسّست هذه الورقة البحثية انطلاقًا من دراسات سابقة، كان الاستئناس بها على حسب مختلف المحاور المدرجة؛ فقد كان الاعتماد على مقال حسين بوبيدي تبيانًا لحجم الدّعاية الّتي تكتنف رسائل الديوان الموحدي من خلال قراءة في المضامين التاريخية والأساليب الدّعائية لرسائل أبي القاسم القالمي، وإلى دور الرسائل الديوانية في تبيان قوة الدولة الموحدية ورسم صورة لامعة عن البلاط الموحدي أجاد مهدي غويرغات في مقاله المعنون:

Les citations de lettres de la chancellerie almoade dans les chroniques.

غير أنّ ما لم يُشَر إليه في هاتين الدراستين أنّ منهج الكتابة الديوانية تقتضي المُداراة وتلميع صورة البلاط، والتعظيم من شأن الحكام وإخفاء مساوئهم وقبائح أعمالهم، فلا يُعقل أنّ كاتبًا يَقتاتُ على موائد خلفاء الموحدين، ويُراوح قصورهم، وينال أجره من خزائنهم، ثمّ يُصَدِّر في رسائله لإيديولوجية تُخالفُ

التّوجه العام للخليفة وسياسته، فالكتابة في نهاية المطاف بديوان الدولة "لا يتقلّدها إلّا تابع، ولا يتولاها إلّا من هو في معنى الخادم" (الجاحظ، 1964: 190/2).

وإنّ الدّراسة الأكثر تقاطعًا مع المحور الأول في هذه الورقة البحثية هي مقالة بغداد غربي والموسومة بالكتابة الرسمية عند الموحدين في الغرب الإسلامي (541 _ 668هـ/1146 _ 1269م) أنواعها، مراسمها، وأهميتها التاريخية، متطرقًا فيها لعديد المواضيع المتعلقة بالرسائل الديوانية في دولة الموحدين؛ من جانبها الشكلي والموضوعي، راسمًا صورة مقربة عن هذه الرسائل الّتي كانت تلقى بالغ الأهمية في الحضرة العلية بدولة الموحدين، وهذا ما مهد لنا طريق الخوض في التأسيس المفاهيمي لهذا البحث.

تُثير هذه الورقة إشكالية طبيعة العائد المعرفي الذي تضيفه الرسائل الديوانية إلى الحقل التاريخي من خلال أنموذج الرسالة المُعالَجة، وإنّ الوصول إلى الإجابة على هذه الإشكالية يُمَهد له بالإجابة على الأسئلة الفرعية التالية: ماهي المحاذير المستوجب مراعاتها خلال البحث في الرسائل الديوانية الموحدية على وجه الخصوص؟، وما مدى إسهام هذه الرسائل في سدّ الثغرات وإيضاح بعض الغوامض التي تكتنف كثير من نصوص المصادر المؤرخة لدولة الموحدين وحضارتهم؟ وكون الرسالة محلّ الدراسة تعبّر عن النفس الموحدي؛ فهل تسعى في مضامينها إلى المرافعة لأمر حصل، أو تفنيد قضية ما؟

وإنّ طبيعة هذه الإشكالات تحيل الباحث حين تعاطيه مع الرسائل التاريخية انتهاج المنهج التحليلي ذو الألية النقدية، فلا يمكن بأي حال من الأحوال استساغة أي معطى في هذه الرسالة دون اجراءٍ تحليلي (التعريف، الشرح، الترجمة، المقابلة، الترجيح...)، وأمّا الآلية النقدية فلا يُمكن قبول أيّ خبر دون إخضاعه لمحك النقد، خاصة حين التعامل مع مادة تاريخية تكتنفها التحيّزات الإيديولوجية، والدّعاية المذهبية كالّتي شهدتها حقبة الموحدين.

لا تخلوا الدراسة من المصادر المعاصرة للحدث الموحدي على غرار؛ كتاب أخبار المهدي وبداية دولة الموحدين للبيذق (ت 555هـ/1160م؟)، والمن بالإمامة لابن صاحب الصلاة (ت 594هـ/1197م) ونظم الجمان لابن القطان المراكشي (ت 628هـ/1230م)، والمعجب لعبد الواحد المراكشي (ت 647هـ/1250م)، ـ وهي من الكتابات المُبَجلة للفعل الموحدي ـ والّتي لا غنى عنها في بناء الحدث وإعادة رسم المشهد خاصة أنّ بعضها عايش الحقبة الموحدية، ناهيك عن بعض المراجع كالبيان المغرب لابن عذارى المراكشي (ت نحو 695هـ/1295م)، وروض القرطاس لابن أبي زرع الفاسي (ت 726هـ/1326م) .وكتاب العبر لابن خلدون (ت 808هـ/1406م) في جزئه السادس، فهي من المصنفات الّتي لا تعبر عن التوجه الموحدي . ، وكان في الغالب الاستئناس بهذه المراجع قصد إثراء التحليل الخاص بالرسالة قيد الدراسة، ومقابلة بعض المورود فيها بما يتماهى معها في باقي النصوص المصدرية.

1. الرسالة؛ المعاني والمضامين

خصّ ابن منظور (ت 711هـ/ 1311م) مادة "رسل" بكثير من الاشتقاقات اللّغوية والدّلالية، فقال: جمع الرسالة الرسائل .. والاسم الرَّسالة والرّسول والرَّسيل. والإرسال: التوجيه (ابن منظور، لسان،

(د،ت): 1644)، وتراسل القوم بمعنى أرسل بعضهم إلى بعض رسولًا أو رسالةً، والرسالة ما يُرسل، ورسالة الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم ما أمر بتبليغه عن الله عزّ وجل (إبراهيم، المعجم، 1972: 344/1).

و المتتبع لمعاني الرسالة يجد أنّها غير مؤدية لنفس المعنى، فهي تختلف من حقبة إلى أخرى، ففي العصر الجاهلي يراد بها ما ينقله الرسول إلى المرسل إبلاغًا شفهيًا، وفي هذا المعنى يقول زهير بن أبي سلمة: ألا أبلغ الأحلاف عني رسالة وذبيان هل أقسمتم كل مقسم (عوض، 2019: 148_149)، ثمّ عُدّت لفظة الكتاب من المعاني اللّصيقة بلفظة الرسالة؛ فكثيرًا ما يقف القارئ على توازي في المعنى والدّلالة بين هاتين اللّفظتين، وهذا ما نستشفه في هذين النّموذجين؛ ففي وصف الخليفة علي بن أبي طالب لرسالة معاوية بن أبي سفيان أنّها "كتاب امرئ ليس له بصر يهديه.." (ابن الأثير، الكامل، 1995: 188/2)، أمّا النّص الثاني فهو ما ورد في الرسالة المقترحة للدراسة، والّتي نقرأ في مطلعها: "وكتابنا هذا" (ابن القطان، الجمان، 1991: 188).

أورد ابن خلدون (ت 808هـ/1406م) تعريفًا جامعًا للرسالة فحواه أنّه "مخاطبات لمن بعد عن السلطان، وتنفيذ الأوامر فيمن حجب عنه" (ابن خلدون، المقدمة، 1958: 22)، وإنّ من أفصح التعريفات للفظة الرسالة في المفاهيم الاصطلاحية ما أورده القلقشندي (ت 821 هـ /1418م) في صبح الأعشى على أنّها "كل ما رجع من صناعة الكتابة إلى تأليف الكلام وترتيب المعاني من المكاتبات، والولايات والمسامحات، والإطلاقات، ومناشير الإقطاعات، والهدن، والأمانات، والأيمان، وما في معنى ذلك ككتابة الحكم وغيرها" (القلقشندي، الإنشا، 1985: 45/1)، مبيّنًا في هذا التعريف أنواع المضامين الخطابية الّتي قد تتضمنها هذه الرسائل الصادرة من أهل الحكم والسلطان، وأكثر اختصارًا وتوافقًا مع طبيعة العنوان المطروح للدراسة ما أورده محمد العربي توات على أنّ الرسالة الرسمية ما كانت موضوعاتها تدور حول السلطة وعلاقتها برعاياها في المشاغل الدينية والدنيوية (توات، 1993: 84)، ومن هنا يُفهم أنّ الرسالة على نوعين؛ رسمية وغير رسمية، فالأولى تكون من أولي الحكم والسلطة أو ما يُطلق عليها الرسائل الرسمية، أو الديوانية، أو المركزية، وتعريفها المفصل؛ أنّها "رسائل صادرة عن الخلفاء والسلاطين أو عن عمالهم من الوزراء والولّاة، إلى جهات أخرى رسمية أو غير رسمية كعامة النّاس، تتناول موضوعات تخصّ شؤون الحكم والرعية" (غربي، 2016: 45)، والثانية حِبيّة أخوية بين باقي النّاس ترمي إلى مُخاطبة غائب بلسان القلم، على شكل قطعة نثرية طويلة أو قصيرة حسب إرادة الكاتب (إملولي، 2008: 72).

ثمّ إنّ الرسالة الديوانية غالبًا ما كان صميم موضوعاتها كل متعلق بالتعيّين والتنحية، أو الإرشاد والتوصية، أو الترغيب والترهيب، وإجمالًا يمكن حصر الرسائل الديوانية في أربعة أنواع:

- المتعلقة بالتعيّين والتولية: كتعيين القضاة والولاة، أو الرسائل المتعلقة بتولية العهد.
- المتعلقة بشؤون الرعية: إرساءً للعدل وإحقاقًا للحق بينهم، وزرع روح التآخي والتآزر في أوساطهم.

. المتعلقة بالتهاني والتعازي: سواءً للعمال والمسؤولين في الدولة، أو للنظراء من باقي الدّول (عتيق، 1972: 223)

. المتعلقة بالجهاد: وهي الموجهة من الخلفاء إلى القادة المكلفين بقيادة الحروب، وغالبًا ما يكون متنها؛ تذكير بفضل الجهاد، ومشروعيته في حماية بيضة المسلمين (عيسى، 1991: 18).

ما يجب التنويه إليه أنّ أغلب الرسائل الديوانية في مختلف السياقات التاريخية لم تكن من خطّ ويراع الخليفة، فقد كان الكاتب الشخصي الأكثر ملازمةً له، وكانت حاجة الخليفة إليه في "توجيه أمور الحكم أكثر من شاعر يُطربه ساعة من الزمن" (جباري، 2016: 36/2)، ولقد حظي الكاتب في دولة المسلمين برتبة رفيعة (السيد، 2000: 214)، وإذا ما أردنا استحضار الحد الزماني في هذه الورقة وأريد الخوض في موضوع الكتابة والكتّاب، أشرنا إلى أنّ الكتابة زمن الموحدين بلغت مبلغًا كبيرًا، كما لم تكن متاحة لمن أرادها؛ فقد كانت المهارة والكفاءة والموهبة الأدبية من شروط تولي هذه المهام (موسى، د.ت: 163)، كما عرفت دولة الموحدين عديد الكتّاب من المغرب والأندلس (عزاوي، 2001: 536 إلى 575)، اللّهم ان استثنينا فترة حكم ابن تومرت (ت 524 هـ/ 1130م) الّذي كان يخطّ بعض الرسائل بنفسه (مجهول، الحلل: 111)، والبعض الآخر يوكله إلى أبي الربيع سليمان الحضرمي أحد العشرة في التنظيم الاجتماعي الخاص بدولة الموحدين (البيذق، أخبار، 1971: 30).

2. العائد المعرفي من الرسائل الديوانية والمحاذير المستوجب توخيها

إنّ المادة الأولية في معرفة أحوال الماضين هي الّتي تقع تحت يدي الباحث من مصادر يكون المتكأ عليها للبحث في ثنايا الموضوعات ذات الشأن التاريخي، فلا يمكن بأي حالٍ من الأحوال تصور الاشتغال على موضوع عائد في سياقه الزمني إلى الماضي دون الإلمام والإحاطة بمختلف المدونات والمصنفات الّتي شهدتها تلك الحقبة، وسوى هذا النهج كان الاختلال في المضامين، وعدم الدّقة في النتائج، وعدم صحة الأحكام؛ المصير في هذا البحث، وإنّ من بين الكتابات الّتي تتفرد بالمعلومة التاريخية في بعض الأحيان رسائل الديوان، والّتي تعدّ أبرز وسيلة تواصلية بين السلطة المركزية والسلطات الإقليمية بمختلف مهماتها، كما تعدّ من أهم الأمور الّتي تُبنى عليها التنظيمات الإدارية، وأنّ عليها مدار السلطان والملك (العسكري، الصناعتين، د.ت: 136)، علاوةً على كونها مصدرًا هامًا يضاف إلى الكتب المصدرية الأخرى.

وإنّ الّذي يُشجع على خوض غمار البحث في تاريخ دولة الموحدين تحديدًا، هو اعتناؤهم بديوان الكتابة ولإنشاء، ويكفي مثالًا ما نقرأه في كتاب "مجموع رسائل موحدية من إنشاء كتاب الدولة المؤمنية"، وبالتالي فإنّ إلقاء الضوء على الرسائل الرّسمية في الدّولة الموحدية من المنابع التأريخية الفعّالة لسد فراغ معرفي ما، أو تصحيح خطأ ورد في أمّهات الكتب التراثية؛ أو تأكيد خبر، أو تفنيده؛ فهي تزيل لثام الغموض عن جوانب سياسية، أو اقتصادية، أو اجتماعية، أو عقائدية ومذهبية، كما تُنير الباحث بأخبار تاريخية مصدرية عديدة؛ كأحوال الغزوات والمعارك، وسياقات الصراعات والانشقاقات، وقرارات التّولية والعزل، وأحكام العقوبات والمصادرات، كما أنّها تُفصح في مضامينها عن واقع التعديات والجرائم، ناهيك عن

التّعمق في معرفة فن الكتابة النثرية ذات الطابع الرسمي في دولة الموحدين، واستخلاص مختلف المعاني الأدبية والبلاغية[1].

ولم يكن الرجوع إلى الرسائل الديوانية في العملية التأريخية وليد هذا العصر، بل نقف على استعانة مؤرخ دولة الموحدين ابن القطان المراكشي بهذه الرسائل قراءةً وفحصًا من جهة، وسدّا لحاجته التأريخية من جهة أخرى (ابن القطان، الجمان، 1991: 47)، وبالتالي فإن الرسائل الديوانية إذا ما صحّ صدورها عن ديوان الكتابة والإنشاء يمكن أن تعتبر الحُكم الفصل في صحة خبر المؤرخ (طليعات، 1973: 119).

وكون الرسائل الديوانية مصدرًا أساسًا في رصد المعلومة التاريخية لا يُزيل عنها تفعيل آلية النقد، مع التحلّي بالموضوعية والاتّزان في التعاطي مع نصوص هذه الرسائل (بوبيدي، 2022: 44)، فهي ليست بمنأى عن المعاملة المألوفة الّتي يتعامل بها الباحث مع باقي نصوص المصادر والمظان الأخرى، خاصة إذا ما أخذنا في الحسبان أنّ الكتابات التاريخية المتزامنة وفترة الموحدين قد نحت منحى الإعلام الموجّه في وقتنا الحاضر، فهي الخاضعة للسلطة المركزية، والحريصة على اضفاء الشرعية على ممارسة المسؤولين والخلفاء والإكبار بصنائعهم، بل وقد نجد كذلك أنّ هذه الرسائل الديوانية نفسها قد سلكت مسلك الدّعاية والإشادة بكل صنيع مركزي سلطوي (Ghouirgate,2019 :66).

هكذا فإنّ الباحث وجب عليه توخي الحذر في قراءته العلمية لهذه الرسائل، وعدم التّسرع في إصدار الأحكام والنتائج الّتي تُخل ببحثه في نهاية المطاف، كما أنّ الضمير العلمي يستوجب على الباحث الأمانة والموضوعية، "فيحرر نفسه بقدر المستطاع من الميل والإعجاب، أو الكراهية لعصر خاص، أو ناحية تاريخية معينة" (عثمان، 1964: 19)، فالباحث الجاد هو "المؤتمن على إظهار الحقيقة التاريخية بكل تجلياتها، دون مجاملة، أو موارة، أو مطاوعة للهوى، أو إرضاء ذوات" (حمزة، 2011: 8)، وهذا في عمومه لن يتأتى إلّا بالقراءة العلمية الأمثل لهذه النصوص التاريخية؛ فتكون هذه القراءة المنهجية على النحو التالي[2]:

- تعريف النّص: نوع النّص، صاحب النص، تاريخ النّص (تاريخ أحداث النّص، تاريخ كتابة النّص، السياق التاريخي للنّص).

- تحليل النّص: الفكرة الأساسية للنص، الأفكار الجزئية، الشرح التفصيلي للنّص (الأعلام المذكورة في النّص، الأماكن الجغرافية، الإشارات التاريخية).

- التعليق على النّص: النقد الخارجي للنص، النقد الداخلي، الأهمية التاريخية لهذا النص.

- خاتمة.

1. كرسائل أبي القاسم عبد الرحمان القالمي دراسة في السمات اللغوية لبراهمي إبراهيم، ورسائل القالميّ وابن محشرة. دراسة فنّيّة. لشارف محمد.

2. هذه المنهجية مستسقاة من كتاب تحليل النص التاريخي منهج ونماذج لمبارك لمين، 2015: 42..52.

وهذا النهج والإجراء الّذي نسعى إلى تجسيده وتفعيله في نموذج الوثيقة التاريخية المتمثلة في الرسالة الديوانية زمن دولة الموحدين؛ الصادرة من الخليفة عبد المؤمن بن علي إلى أولي الحكم والمسؤوليات بالأندلس سنة 543هـ/1148م.

3. تحليل الرسالة[3] محل الدّراسة

3. 1. التعريف بالنّص وصاحبه

• النّص رسالة ديوانية تاريخية، صادرة عن الخليفة الأول بدولة الموحدين عبد المؤمن بن علي وهي موجهة إلى "جميع الطّلبة الذين بالأندلس، ومن صحبهم من المشيخة، والأعيان، والكافة" (الرسالة: 188)، أوردها ابن القطان المراكشي في معرض مدحه وذكره لمحامد الخليفة عبد المؤمن بن علي، وهو أوّل من أدرج الرسالة في كتابه ابتداءً من الصفحة 188 إلى 203.

• من هو عبد المؤمن بن علي؟

هو الرجل الثاني في دولة الموحدين بعد الزعيم الروحي المهدي بن تومرت، واسمه الكامل؛ عبد المؤمن بن علي بن مخلوف بن يعلى بن مروان، ويلقب بالكومي نسبة إلى قبيلة كومية ـ تلمسان ـ (البيذق، المقتبس: 13..16)، تولى زمام الحكم بعد وفاة المهدي (524-558هـ/ 1120-1163م)، وامتاز بالفصاحة والفقه والعلم والجدل، ذو مُكنة في كثير من العلوم الدينية والدنيوية، عُرف بالحزم والسياسة والإقدام في الحرب (الفاسي، الأنيس، 1972: 203 . 204)، كما اهتم بالفتح والغزو فقد أخذ من البلاد؛ وهران، ثمّ تلمسان، ثم فاس، ثمّ سلا، ثمّ سبتة، وانتقل بعد ذلك إلى مراكش وحاصرها إحدى عشر شهرا ثمّ ملكها، وامتدّ ملكه إلى المغرب الأقصى والأدنى وبلاد إفريقية وكثير من بلاد الأندلس، وبحسب مؤرخ دولة الموحدين يوسف بن عمر، فإنّ وفاة عبد المؤمن بن علي كانت سنة 558هـ/1163م، وكان له من السن حين توفي ثلاثة وستون سنة، أمّا مدّة حكمه فكانت ثلاثة وثلاثين سنة، وثمانية أشهر، وخمسة وعشرين يومًا، من حين وفاة المهدي بن تومرت (مجهول، الحلل، د.ت، 156).

• كاتب الرسالة

خطَّ الرسالة الكاتب جعفر بن عطية؛ واسمه الكامل أبو جعفر أحمد بن جعفر بن محمد بن عطية القضاعي المراكشي ـ الكاتب والوزير ـ (ابن الأبار، التكملة، 1985: 238/2)، يكنّى بأبي المجد، وهو من أهل مراكش، ولد بمراكش سنة 517هـ/1123م (ابن الأبار، الحلة: 288)، نشأ في كنف أبيه الّذي يعدّ من أوائل شيوخه (عبد الواحد، المعجب، 2006: 199)، أخذ العلم عن طائفة كبيرة من أهل مراكش، أمّا ولوج ابن عطية تحت مظلّة الموحدين فقد كان سنة 542هـ/1148م، وكان هذا بعد اختفائه ضمن الجند الموحدي إثر فتحهم مراكش، فأثناء المعركة غيّر هيئته وتشبّه بالجند الموحدي واندمج معهم، فاختير من ضمن الجمع لكتابة رسالة النصر عن الشّيخ أبي حفص الهنتاني إلى أمير المؤمنين عبد المؤمن بن علي (ابن

3 . استُخدمت كلمة "الرسالة" في التّحليل للإحالة إليها مباشرة في كتاب نظم الجمان، وهذه الرسالة تبتدأ من الصفحة 188 إلى الصفحة 203.

الخطيب، الإحاطة، 1898: 264/1)، فكانت هذه الرسالة الطريق إلى الكتابة والوزارة بالحضرة العلية، وبها نال الشّرف والمنزلة الجليلة، كيف لا؛ وهو "إمام الكتّاب في صدر دولة عبد المؤمن" (مجهول، المرقصات، د.ت: 12).

وما أورده ابن القاضي المكناسي (ت 1025هـ/1616م) من تاريخ لوفاة ابن عطية فهو مستبعد جدًا (540هـ)! (المكناسي، جذوة الاقتباس، 1975: 175/1)، وهذا الّذي يُفنده اتفاق المصادر على كون سنة 543هـ هي السّنة التي كتبت فيها الرسالة محل الدراسة، وإنّ الأكثر توافقًا مع مجريات الأحداث هو تاريخ 553هـ/1158م مثلما أورده عبد الواحد المراكشي (عبد الواحد المراكشي، المعجب، 2006: 199)، وأبو العباس السلاوي (ت 1315هـ/1897م) (السلاوي، الاستقصا، 1954: 116).

• يعود تاريخ هذه الرسالة إلى السادس عشر من شهر ربيع الأول سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة (الرسالة: 188_ 189)، غير أنّ القارئ يقف على تاريخ آخر لهذه الرسالة عند ابن عذارى المراكشي وهو الخامس عشر من ربيع الأول سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة (ابن عذارى، البيان، 2013 : 118/3)، ولكنّ الراجح ما ورد في متن الرسالة عند ابن القطان، كون هذه المعلومة ضمن ماكتبه الكاتب جعفر بن عطية، وبخصوص مكان الكتابة فقد كان بالحضرة العلية في تينمل[4]، وتأتي هذه الرسالة في ظلّ الفتوحات الكبيرة التي قادها الخليفة عبد المؤمن بن علي لبلاد المغرب، والقضاء على الثورات والتمردات، خاصة التي كانت تحت قيادة الثائر الماسي[5]، وما لحقها من اضطرابات على عديد الأصعدة شهدتها العدوة الأندلسية نكتشفها في الرسالة محل الدراسة.

3. 2. القراءة التحليلية للرسالة

الفكرة الرئيسية لهذه الرسالة تتمحور في: التوجيهات والأوامر إلى الولاة والعمال بالدرجة الأولى، ومن كان تحت وصايتهم من؛

• **الطلبة:** وهم "أهل العلم والتلقي" (ابن الخطيب، الحلل، 1898: 57)، كما وجب التنويه إلى أنّ لفظة الطلبة في حقبة الموحدين لم تعرف ثباتًا في الدلالة؛ ففي عهد ابن تومرت كان أهل العشرة يُسمون "بالطلبة"، وبعده انتقلت هذه التّسمية إلى فئة أهل العلم وكبار العلماء بالدولة، وفي عهد عبد المؤمن أُطلق لفظ الطلبة على ثلاثة فئات وهي:

4 . منطقة محصنة تقع في أعالي جبل درن بين سلسلة جبال الأطلس ببلاد المغرب الأقصى، صعب المرتقى لإحاطتها بالأجراف والمهاوي، ولا يتوصل إليها إلّا عن طريق جسر متحرّك، ولهذا وقع اختيار ابن تومرت عليها تحصنًا من أيّ خطر مرابطي تحديدًا. (ابن سعيد، الجغرافيا، 1970: 125).

5 . هو محمد بن عبد الله بن هود الماسي، ادّعى المهدوية اقتداءً بابن تومرت، اجتمع عليه النّاس من جميع الأقطار رافضين دعوة الموحدين، فقامت بدعوته أمم لا تحصى، وهذا ما دفع الخليفة عبد المؤمن بن علي للقضاء عليه وعلى دعوته. (مجهول، الحلل، د.ت: 146).

ـ الطلبة الحفاظ: وقد أتى بهم عبد المؤمن من مختلف الأقاليم، قصد تدريسهم وتثقيفهم وتدريبهم، وكان عددهم ثلاثة آلاف طالب.

ـ طلبة الموحدين أو طلبة المصامدة: وهم المشتغلون بالدعوة في مختلف أقطار دولة الموحدين. (حسن، 1964: 331 - 334)

ـ طلبة الحضر: وهم الذين يحضرون إلى مراكش بأمر من ولاة الأمر[6].

• **المشيخة:** لفظ واسع الدلالة حمّال أوجهٍ، وعمومًا هم "أشياخ البلاد من الفقهاء والطّلبة، والكتّاب والشعراء" (ابن القطان، الجمان، 1991: 173).

• **الأعيان:** يُقصد بالأعيان في المفاهيم اللّغوية الأشراف، وفي هذا يقول الزمخشري (ت 538هـ/1143م): "هو من أعيان النّاس أي من أشرافهم" (الزمخشري، البلاغة، 1998: 691/1)، وما يُفهم من سياق الرسالة أنّهم أصحاب رجاحة العقل، والحكمة، والكلمة المسموعة.

• **الكافة:** مفهوم واسع يشمل غير مخصص بذكر اسمه أو صفته في الرسالة، من تجار وفلاحين، وحرفين، وخدم، وقد وردت هذه اللّفظة كذلك في آخر الرسالة في سياق أمر عبد المؤمن بقراءتها على جميع ساكنة الأندلس، وذلك بقوله: "واقرأوه [أي الكتاب] على الكافة أعالي المنابر" (الرسالة: 201).

أمّا المضامين الجزئية التّي تتضمنها هذه الرسالة فيمكن إيرادها في هذه المحاور الجامعة؛

• **الدّعوة والأمر:** نقرأ في هذه الرسالة مجموعة من الأوامر أصدرها الخليفة عبد المؤمن بن علي ومثال ذلك؛ ألا توكل مهام النّظر في المظالم إلّا لأهلها المعينين ابتداءً (الرسالة: 195)، آمرًا إيّاهم بالحُكم في مشاكل الرّعية وهمومهم بتواضع دون استعلاء (الرسالة: 195)، متحرين القسط والعدل في الأحكام، حرصين على تطبيق شرع الله دون فحش ومبالغة (الرسالة: 196)، وعدم الاجتهاد في القضايا الّتي يُجهل فيه حُكمٌ، وعدم الخوض في مسائل الدماء، ورفع كبائر القضايا للحضرة العلية بمراكش للفصل فيها ، داعيًا إلى البحث بجدٍّ عن المتسببين في قبائح الأعمال (الرسالة: 196).

• **اللّطف بالرعية:** يجد القارئ لرسالة الخليفة عبد المؤمن عديد المعاني الخاصة بالرحمة واللّطف بالرّعية، في دعوة صريحة منه لأولي الأمر في الأندلس للاهتمام بشؤون العامة، ومن نماذج ما ورد في هذا الصدد ما يلي:

ـ "غرضنا بجميع المسلمين إشفاق وحنان، وجانبنا لهم دعة مستمرة وأمان، ولدينا من التراؤف بهم والرفق بجانبهم شان" (الرسالة: 201).

ـ "وأحسنوا بهم رعاكم الله ظنا [الرعايا]، وعودوهم الخير لفظا ومعنى، وخلقوا معهم بمحاسن الخلاق، وقولوا للنّاس حسنى" . (الرسالة: 202).

6. للاستزادة العلمية لتفاصيل هذه الفئة يُراجع: (حسن، 1980: 331..334)، (حداد، 2013: 170 ..174).

. "وابذلوا لهم من المساعدة في ذات الله تعالى غاية ما يُتمكن، وانهجوا لهم من المبرات منهجا يبدوا به مضمركم الجميل .. ويسروا ولا تعسروا، وسكنوا ولا تنفروا" (الرسالة: 202).

. "فعليكم بالمظافرة، والمناصرة، والمؤازرة، فهي سواعد السعد، قواعد الوّد، وشيم الكرام الحافظين للعهد، وبها يعمر محل الرضى وندیه، وبها أوصى الله تعالى ورسوله ومهديه" (الرسالة: 202).

• الإشارة إلى مساوئ الأمور ببلاد الأندلس وترهيب المعتدين فيها بسوء المصير

عرض عبد المؤمن بن علي في رسالته ما آلت إليه الأوضاع العامة بالعدوة الأندلسية غداة فتحها (541هـ/ 1147م) فبدأ بذكر الظلم والجور ومساوئ الأمور والتّعديات بصفة العموم، مشيرًا في ذلك إلى تسلّط أهل النفوذ والسلطة، ويظهر لنا أن المعنيّين بالدّرجة الأولى هما أخوا المهدي بن تومرت . عيسى وعبد العزيز. ومن تبعهم في الظلم والإجرام ببلاد الأندلس (الرسالة: 191)، فقد كان أخوا ابن تومرت في عمل دؤوب قصد استرجاع إرث أخيهما الضائع (ميراندا،2004: 161)، فمن بشائع الأمور الّتي اقترفوها؛ إجلاء أهل إشبيلية وحرق ديارهم، وجعل البعض الآخر من الدّيار اسطبلات لدوابهم، كما كان لهم مذهب في قتل النّاس وإباحة الدّماء، وأخذ الأموال، واتصال بالاعداء، وهذا الّذي دفع عبد المؤمن بن علي لإرسال أبي يعقوب يوسف بن سليمان لنشر العدل وتهدئة نفوس أهل إشبيلية، بعد أن أرغم أخوي المهدي و ابن عمهما يصلاتن بالرجوع إلى مراكش (ابن عذارى، البيان: 3/117..119).

ومن بين مظاهر التعدّي على الأنفس والأموال الّتي أشار إليها عبد المؤمن في رسالته (الرسالة: 193)، ما أورده ابن عذارى المراكشي في قضية اعتراض أبي إسحاق برّان . الناظر في المخزن بإشبيلية . وفدٍ قد رجع من مراكش بأموال مُنحت لهم من طرف الخليفة عبد المؤمن، وهذا ما لم يقبله الوفد فعادوا شاكين للخليفة بالنّاظر، فأمر الخليفة بإرجاع الأموال إلى أصحابها، وأن يشتغل يوسف بن أحمد بالاحتساب في اشبيلية وكان هذا سنة 541هـ/1147م (ابن عذارى، البيان، 2013: 3/116).

تُفصح الرسالة على واقع مرير عاشه ساكنة الأندلس من تّعدي على الحرمات، وضرب العامة بالسيّاط، وانتشار القتل، دون أيّ وجه شرعي (الرسالة: 191)، ولهذا رأى الخليفة عبد المؤمن عدم اصدار حكم القتل في قضايا المعتدين إلّا بالرجوع إلى الحضرة العلية للنّظر فيها (الرسالة: 196)، آمرًا بالوقوف عن بيع النّساء (الرسالة: 197)، ثمّ ذكر أمر المغارم والمكوس والقبالات[7]، وما يقع من مخالفات تخصّ ما لا يجب استغلاله والانتفاع منه، وهو ما أسماه "بتحجير المراسي" (الرسالة: 193).

أشار الخليفة عبد المؤمن في رسالته بنوع من التّفصيل إلى الضرائب . وهي في الأصل سرقة وتعدي على الممتلكات . أُثقل بها عاتق العائدين إلى أوطانهم، والطوائف المارة بالبلاد قصد التجارة من طرف

7. القبالة: هي في الأصل ضريبة تدفع لبيت المال، وقد أطلق استعمال هذا اللّفظ على الضرائب الغير منصوصة شرعًا، وكلمة القبالة تستخدم في بلاد الغرب الإسلامي للدلالة على الضرائب الّتي يؤديها الحرفيون وبائعو السلع الرئيسية. يراجع: (Dozy, 1881: 2/305 _ 306)

الظّلمة الّذين "يقولون للرّجل منهم: عندك من حقوق الله كيت وكيت .. ويُقرنون بهذا الوعيد والإغلاظ الشديد" (الرسالة: 194)، فقد سُطّرت ضرائب لم يعلم بها الخليفة، وما أنزل الله بها من سلطان على المسافرين والتّجار، وأُلبست لباس الشرعية ـ حقّ الله ـ فإذا ما عارض الرجل هُدّد بالعقاب الغليظ(الرسالة: 194)، ثمّ ذكر حال الرّقاصين[8] الّذين يحلّون بأفنية النّاس "ويكلفونهم مؤناتهم تكاليف المجرم، ويتحكمون عليهم بحكم المغرم، حتّى إنّهم لا يرضون في ضيافتهم إلّا بأسمن الجزر" (الرسالة: 198)، فمن هذا النّص نستنج تلك السلطة والمنعة الّتي كان يتمتع بها سعاة البريد، إلى حدّ فرض غرامات على النّاس، والتّسلط على مؤنهم، واشتراط أنواع الأكل واللحوم، ولهذا أمر عبد المؤمن الولاة لكفّ سعاة البريد من بطش وقهر النّاس، واختيار أهل المقدرة والتّقى لهذه المهام (الرسالة: 198 - 199).

لقد أبان عبد المؤمن بن علي عن حزمٍ وصرامةٍ في تطبيق أشدّ العقوبات على المجرمين، فأمر الوّلاة بقبض المعتدين على أموال النّاس والمتطاولين على مخازن الدولة، والمتسببين في تلك القبائح، والتّعريف بهم ليكفّ بعقابهم نوعهم الظالم (الرسالة: 193)، ومن نماذج النصوص الترهيبية الّتي نقرؤها:

ـ "هيهات! هيهات! إنّهم ساء ما كانوا يعملون، تا الله ليأتينّهم من العقاب الأليم في أقرب أمدّ ما يهدّهم هد، ويجعل بينهم وبين النّجاة من اشتداد الهلكة سدّا، ويستأصلهم بصواعق الانتقام فقد جاءوا شيئا إدّا" (الرسالة: 192).

ـ "وتالله لو تعيّن لنا فاعل ذلك وتشخص، لما خرج من خبالة مكره ولا تخلّص، ولسارع إليه من أسرع عقابنا ما يمحو رسمه محو الفنا" (الرسالة: 193).

ـ "ولئن نقل إلينا ـ والله الشاهد ـ أنّ نوعًا من هذه الأنواع المحرمة، أو صنفا من تلك الأصناف المظلمة، يتولّاه أحد هنالك من البشر، أو يأمر بشيء من ذلك الفعل المستنكر؛ لنعاقبه بمحو أثره، عقابا يبقى عظة لمن اتعظ، وعبرة لمن تنبه لزاجر الحقّ واستيقظ" (الرسالة: 194).

هكذا فإنّ هذه الرسالة تأتي في سياق زمني انتقالي عرفت فيه دولة الموحدين عديد الاضطرابات في العدوتين المغربية والأندلسية؛ فأمّا المغربية فقد شهدت عدّة معارك مع المرابطين، و السّعيّ للقضاء على ثورات الثائرين، وطلب البيعة من المتخلفين عنها، وبسبب هذا؛ "غلت الأسعار، وتوالت الفتن، وعمّ الجذب وقلّت المجابي، وكثر على أهل الإسلام المحن" (مجهول، الحلل، د.ت: 119 . 120)، وأمّا العدوة الأندلسية فقد كانت الأمور بيد العمال والأشياخ فلم يُؤدوا دورهم كما يجب، خاصة الصنائع الشنيعة الّتي أحدثها أخوا المهدي بن تومرت عيسى وعبد العزيز ـ بعد أن كانوا من "وجوه الجيش بإشبيلية أيام فتحها"ـ(السلاوي، الاستقصا، 1954: 110)، ناهيك عن الحاح النصارى على ضرب جهات من الأندلس إلى

8 . الرّقاص: هو حامل البريد الرسمي في بلاد الأندلس والمغرب، وهو لفظ معروف منذ القدم، وقد كانت تسند لرجال أقوياء مدربين على الركض والعَدو، وكان فيهم الرقاص العادي، والرقاص الشرط، وهذا الأخير هو ساعي البريد المستعجل بحيث ينقل الرسائل بين المدن على الخيل والجياد بمنتهى السرعة. يراجع: (عزاوي، 2001: 67). (ابن صاحب الصلاة، المن، د.ت: 77).

حدّ تغلبهم على كثير من البلاد فيها، وهذا لعلمهم بالّا استقرار الّذي يسود العدوة المغربية (مجهول، الحلل، د.ت: 120)،

فكل هذه الظروف ساهمت في كتابة هذه الرسالة.

3.3. التعليق على الرسالة

3. 3. 1. النقد الخارجي للرسالة

لا يقف الباحث على اختلاف أو تضارب في الآراء حول نسبة كتاب نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان لمؤلفه ابن القطان المراكشي، وما يدلّ على هذا؛ اشارة ابن عذارى (ت نحو 712هـ/1313م) إلى هذا المصنف و صاحِبِه في كتابه البيان المغرب (ابن عذارى، البيان: 23/1)، ونفس الأمر عند صاحب مفاخر البربر (مجهول، مفاخر، 1998: 67)، أمّا الرسالة . محور الدراسة . فقد أوردها ابن القطان في معرض مدحه وذكره لمحامد الخليفة عبد المؤمن بن علي، وهو أوّل من أورد هذه الرسالة ابتداءً من الصفحة 188 إلى 203، ونقلها عنه غير واحد من المؤرخين على غرار: أحمد عزاوي في كتابه رسائل موحدية من الصفحة 61 إلى ص71، وعبد الله علام في كتابه الدولة الموحدية بالمغرب في عهد عبد المؤمن بن علي من الصفحة 393 إلى 405، كما أشار إلى هذه الرسالة العديد من المؤرخين من بينهم ابن عذارى المراكشي موردًا مقالًا تناول فيه بإسهاب حيثيات هذه الرسالة، وكان هذا في معرض سرده لحوادث سنة 543هـ (ابن عذارى، البيان، 2013: 118/3)، وهذا ممّا لا يدع شكّا في صحة نسبة الكتاب لمؤلفه أولًا، ثمّ نسبة الرسالة للخليفة أمير المؤمنين عبد المؤمن بن علي ثانيًا.

كذلك لم يرد في النّصوص المصدرية أو المرجعية ما ينفي كتابة جعفر بن عطية لهذه الرسالة، فبدءًا بابن القطان الّذي يُرجع الكتابة لابن عطية بقوله: "وهي من إنشاء الكاتب أبي جعفر بن عطية" (ابن القطان، الجمان، 1991: 187)، وكذلك قول ابن عذارى: "فكتب أبو جعفر بخطّه عنه كتابًا إلى الطلبة والأشياخ.." (ابن عذارى، البيان، 2013: 118/3)، أمّا من النصوص المرجعية فقد كتب عبد الله علي علام في التهميش رقم (4) صفحة (393) "هذه الرسالة من إنشاء الكاتب أبي جعفر بن عطية على لسان الخليفة عبد المؤمن"، وكذلك نجد هذا في التقديم الخاص بهذه الرسالة عند أحمد عزاوي (عزاوي، 1995: 61).

3. 3. 2. النقد الداخلي للرسالة

مضمون الرسالة في أساسه وصفٌ لواقع انتقالي شهدته جغرافيا الغرب الإسلامي، فبعد الصراع المرابطي الموحدي آل الحكم لهذا الأخير بانتزاعه العاصمة مراكش سنة 541هـ/1147م، ولم تهدأ الأمور بعد هذا؛ فقد شهدت هذه الدّولة عديد الاضطرابات سعى الخليفة عبد المؤمن لحلّها في عديد المرات بمنهج القسوة والعنف (البيذق، أخبار، 1971: 69. 70).

أمّا من هذه الرسالة نستخلص الجمع بين منهج التلطف والدعوة الحكيمة، وبين منهج الترهيب والوعد بالوعيد لمن سوّلت له نفسه شقّ الصّف ومخالفة أمر الحضرة العليّة، ولهذا فقد استند عبد

المؤمن بن علي في كثير من مضامين هذه الرسالة إلى الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، وهذا في محاولة لتهدئة النفوس وكسب القلوب، لما في هذه النصوص المقدسة من تأثير على النّاس.

حتى إن اقررنا بأنّ هذه الرسالة تعبّر عن النفس والتوجه الموحدي، إلّا أنّه يمكن قبول جلّ ما ورد فيها كونها وصفًا لواقع معيش، يصعب على صاحبها الكذب أو الافتراء، كما نجد محتواها إرشاد وتوجيه، وإرادة على تحقيق الحق وإبطال الباطل، ورصد لظواهر، وإشارات لتجاوزات، غير مرافعة لأمر ما، أو مفندةً لقضية كي نسلط عليها ضوء النقد والمقابلة بما يُخالفها، وأكثر من هذا أنّ بعض تفاصيل هذه الرسالة نجدها مبثوثة في غير مصنف تاريخي على غرار: المعجب لعبد الواحد المراكشي، أو البيان المغرب لابن عذارى المراكشيّ.

3. 4. الأهمية التاريخية للنّص

صحيح أن الباحث يقف على سرديات تاريخية تزامنت وفترة دولة الموحدين سعت في مجملها إلى رسم صورة نمطية للحدث التاريخي؛ فجعلت التّبجيل والتّقديس لكل ما يمت للطّرف الموحدي بصلة، وإزاء هذا تسعى لتشويه صورة الخصوم، بترديد مقولات التّفسيق، والتّبديع، والتّكفير، فمارست بذلك أسلوبًا إيديولوجيًا أخلّ بالحقيقة التاريخية من جهة، وأوقع عديد الباحثين في مستنقع الميولات والتّحيزات لطرف على حساب آخر، لكن هذا ليس بالمدعاة إلى التّخلي عمّا ورد في هذه المصنفات المؤدلجة ـ نظرًا لما لها من إضافات نوعية، وأسبقية زمنية ـ بقدر ما هو مدعاة لتحري الحقيقة قبل التّصديق أو الجزم لما ورد فيها من معطى أو خبر.

وإنّ الأهمية التاريخية لهذا النّص ـ تجاوزًا عن الأسبقية الزمنية ـ تظهر في عديد النقاط لعلّ أهمها ما يلي:

• شهود فترة 541 ـ 543هـ من تاريخ الموحدين في بلاد الغرب الإسلامي عديد الاضطرابات خاصة على الصعيدين السياسي والاجتماعي.

• ظهور فواحش الأمور في بلاد الأندلس من انتشار الخمر، وقطع السبيل، والغرامات والمكوس، وبيع النساء، واستغلال الممتلكات العامة في المنافع الشخصية.

• التسرع في إصدار أحكام العقوبات؛ وبهذا تعدي على الأرواح، ما دفع بالخليفة إلى تعطيل القضاء في الدماء.

• يُظهر لنا النّص حجم العدوان والظلم الممارس من طرف أخوي المهدي بن تومرت وابن عمهما يصلاتن، ما خلّف تذمرًا كبير لدى ساكنة إشبيلية والأندلس عمومًا.

• لم يكن منهج القسوة والعنف من طرف عبد المؤمن بن علي السائد في هذه المرحلة الانتقالية، في صورة توحي لنا بأنّ الرجل سعى لكسب النفوس وتأليف القلوب، وتهدئة الأوضاع، خاصة بعد سلسلة الحروب الطويلة الّتي خاضها ضد المرابطين، وحركة الثورات والتمردات الّتي شهدتها بلاد المغرب، ولذا

نقف على عديد صيغ التّلطف والدعوة اللّينة لساكنة الغرب الاسلامي على وجه العموم للدخول في صفّ الموحدين وعدم الانشقاق عن الدولة.

• تبيّن الرسالة عن نيةٍ في إرساء العدل ومحاربة الظلم المستشري في المجتمع الأندلسي على وجه الخصوص؛ فقد سار الخليفة عبد المؤمن بن علي على نهج الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، ويظهر ذلك في مراقبته الصّارمة للعوام في حياتهم الخاصة؛ وذلك بمحاربة الخمر والميسر وشتّى المسكرات، وسعيه للقضاء على العادات القبيحة كالسرقة والتخريب (عبد الواحد، المعجب، 2006: 194..197)، وإقامة دولة قوية أساسها تطبيق شرع الله.

• لقد كانت الرسالة في الأساس موجهة إلى أولي المسؤوليات بالأندلس، إلّا أنّ الخليفة عبد المؤمن عمّم التوجيهات والأوامر إلى كل من ينضوي تحت لواء الموحدين في الأندلس من ساكنة وذلك بقوله: "واقرأوه [أي الكتاب أو الرسالة] على الكافة أعالي المنابر، واستحضروا له وفود القبائل من البوادي والحواضر، وأسمعوا به إفصاحًا وإعلانًا، وأشربوه قلوب الناس جماعات ووحدانا، وأحسنوا إيصال أغراضه إليهم" (الرسالة: 201).

خاتمة

غالبًا ما كانت الرسائل الديوانية وما تحويه من مضامين؛ القول الفصل والرأي الراجح حين تضارب النصوص والآراء في قضية من القضايا التاريخية، ولعلّ السبب الأبرز في هذا هو أنّ المبتدأ الأساس في الكتابة لم يكن لمقصد التأريخ، وهذا الّذي لمسناه حين تحليلنا لرسالة عبد المؤمن بن علي، ولكن وجب التنويه إلى أنّ نوعية الخطاب في الرسائل الديوانية تختلف، وهذا الّذي يدعوا إلى توخي عديد المحاذير حيال هذه الرسائل الّتي قد تحمل تحاملًا أو ادّعاءً أو مغالطات.

هكذا؛ فإنّ رسالة عبد المؤمن بن علي تُنير الباحث بعديد المعلومات التاريخية الّتي يجب ضبطها بسياقها؛ اعتبارًا أنّ بلاد الغرب الإسلامي منذ بداية دعوة ابن تومرت (514هـ/ 1121م) لم تشهد استقرارًا خاصة ما آلت إليه الأوضاع مع النّظير المرابطي، ثمّ وفاة المهدي بن تومرت سنة 524هـ/1130م، وانتقال الحكم لعبد المؤمن بن علي، ولعلّ هذه المرحلة الأكثر اضطرابًا من الناحية السياسية والعسكرية والجغرافية؛ فإذا ما قيل السياسي قيل إعادة تشكيل المنظومة الحكومية من وزراء وشيوخ، وولاة على الأقاليم، وقضاة ومحتسبين، وكتّاب و نُظار في المظالم، أمّا المعضلة في المجال الحربي العسكري فتتمثل في المجابهة الداخلية مع الخصم المرابطي، والقضاء على الثورات والتمردات، والعمل على الاستقواء بساكنة الأقاليم الغير مبايعة وتوسيع المجال الجغرافي الموحدي، ناهيك عن مجابهة القوى المعادية لدولة الإسلام خاصة العدو المسيحي الإسباني، أمّا التضعضع الاجتماعي فقد تعدّدت مظاهره، ولعلّ جلّها مورود في الرسالة السالفة.

وهذا في عمومه ما عرقل الاستقرار الموحدي في بلاد الغرب الإسلامي واستغرق ردحًا من الزمن في تنظيم الصفوف وتوطيد الأركان، ما جعل عبد المؤمن بن علي يسعى إلى ضبط الأمور خشية الانفلات وضياع الملك، وما هذه الرسالة في أعمال الخليفة عبد المؤمن إلّا عيّنة من الأمور الإجرائية الّتي بها يستقيم الملك، والّتي أمدتنا بوافر الحقائق التاريخية الّتي لا غنى عنها لمن تطرق لمعظم المواضيع المتعلقة بدولة الموحدين؛ البعد القضائي، الجانب الاقتصادي، العلاقة بين الراعي والرعية، الآفات الاجتماعية.

البيبليوغرافيا

-المصادر

1. ابن الأبار أبو عبد الله محمد القضاعي . (1956)، *التكملة لكتاب الصلة*، تصحيح: عزت العطار الحسيني، مطبعة السعادة، القاهرة، مصر.
2. ابن الأبار أبو عبد الله محمد القضاعي (1985)، *الحلة السيراء*، تحقيق: حسين مؤنس، (ط2)، دار المعارف، القاهرة، مصر.
3. ابن الأثير أبو الحسن عز الدين (1995)، *الكامل في التاريخ*، ج2، دار صادر، بيروت، لبنان.
4. البيذق أبو بكر بن علي الصنهاجي . (1971)، *أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين*، تحقيق: عبد الوهاب بن منصور، دار المنصور، الرباط، المغرب.
5. البيذق أبو بكر بن علي الصنهاجي. (1971)، المقتبس من كتاب الأنساب في معرفة الأصحاب، تحقيق: عبد الوهاب بن منصور، دار المنصور، الرباط، المغرب.
6. الحسني تقي الدين محمد بن أحمد الفاسي . (1986)، *العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين*، تحقيق: فؤاد سيد، (ط2)، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان.
7. الجاحظ عمرو بن بحر ، (1964)، *ذم أخلاق الكتاب* (الرسالة 15)، (ج2)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر.
8. ابن خلدون أبو زيد ولي الدين عبد الرحمان .(1958)، *المقدمة*، تحقيق: عبد الواحد علي واقف، (ط1)، دار البيان العربي، بيروت، لبنان.
9. ابن خلدون أبو زيد ولي الدين عبد الرحمان .(2000)، *العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر*، (ج6)، ضبط المتن: خليل شحادة، مراجعة: سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، لبنان.
10. ابن أبي زرع أبو الحسن علي الفاسي . (1972)، *الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس*، دار المنصور، الرباط، المغرب.
11. ابن سعيد أبو الحسن علي المغربي . (1970)، *كتاب الجغرافيا*، تحقيق: إسماعيل العربي، (ط1)، المكتب التجاري، بيروت، لبنان.
12. السلاوي أبو العباس أحمد بن خالد .(1954)، *الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى*، تحقيق: جعفر الناصري، ومحمد الناصري، ج2، دار الكتاب، الدار البيضاء، المغرب.

13. ابن صاحب الصلاة أبو محمد عبد الملك بن محمد . (د.س. نشر)، *المن بالإمامة*، تحقيق: عبد الهادي التازي، (ط1)، دار الغرب الاسلامي، بيروت، لبنان.

14. عبد الواحد محيي الدين بن علي المراكشي . (2006)، *المعجب في تلخيص أخبار المغرب من لدن فتح الأندلس إلى آخر عصر الموحدين*، تحقيق: صلاح الدين الهواري، (ط1)، المكتبة العصرية صيدا، بيروت، لبنان.

15. ابن عذارى أبو العباس أحمد بن محمد المراكشي . (2013)، *البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب*، (ج: 1 . 3) تحقيق: بشار عواد معروف، ومحمود بشار عواد، (ط1)، دار الغرب الإسلامي، تونس.

16. العسكري أبو هلال الحسن بن عبد الله. (د.ت)، *كتاب الصناعتين الكتابة والشعر*، تحقيق: علي البجاوي ومحمد إبراهيم، (ط1)، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، مصر.

17. ابن القطان علي بن محمد بن عبد الملك المراكشي .(1991)، *نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان*، تحقيق: محمود علي مكي، (ط1)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان.

18. ابن القاضي أبو العباس أحمد بن محمد المكناسي . (1975)، *جذوة الاقتباس فيمن حلّ من الأعلام مدينة فاس*، طبع حجر، فاس، المغرب.

19. القلقشندي أبو العباس أحمد بن علي (1985)، *صبح الأعشى في صناعة الإنشا*، ج2، الهيئة المصرية للكتاب، مصر.

20. لسان الدين بن الخطيب محمد بن عبد الله . (1898)، *رقم الحلل في نظم الدول*، المطبعة العمومية، تونس.

21. ليفي بروفنصال .(1941)، *مجموع رسائل موحدية من إنشاء كتاب الدولة المؤمنية*، المطبعة الاقتصادية، الرباط، المغرب.

22. مؤلف أندلسي مجهول، (د.ت)، *الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية*، تحقيق: سهيل زكار، (ط1)، دار الرشاد الحديثة، المغرب.

23. مجهول .(1998)، *مفاخر البربر*، تحقيق: محمد زينهم، (ط1)، جهاد للنشر، مصر.

24. مجهول، *عنوان المرقصات والمطربات*، دون معلومات النشر.

-الدراسة (الكتب والمقالات)

1. إملولي حكيمة، (2009م)، الأشكال النثرية في الأدبي المغربي القديم العهد الموحدي نموذجًا، رسالة ماجستير، جامعة الحاج لخضر، باتنة.

2. بوبيدي حسين، (2022)، رسائل أبي القاسم القالمي الديوانية قراءة في المظامين التاريخية والأساليب الدّعائية، *مجلة المعالم*، العدد: 25.

3. توات طاهر محمد، (1993)، *أدب الرسائل في المغرب العربي خلال القرنين (7 . 8 الهجريين)*، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.

4. حسن عثمان، (1964)، *منهج البحث التاريخي*، (ط8)، دار المعارف، القاهرة، مصر.

5. حسن علي حسن، (1980)، *الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس "عصر المرابطين والموحدين"* ، (ط1)، مكتبة الخانجي، مصر.

6. حداد مزوزية، (2013)، سياسة الدولة الموحدية من خلال الرسائل الديوانية 515 ـ 668م/ 1121 ـ 1269م، رسالة ماجستير، إشراف الأستاذ الدكتور: مسعود مزهودي، جامعة الحاج لخضر باتنة.

7. جبار سامية، (2016)، أثر القرآن الكريم في المكاتبات السلطانية الأندلسية، *حوليات جامعة الجزائر* 1، الجزء 2، العدد: 29.

8. الداية محمد رضوان، (2000)، *في الأدب الأندلسي*، (ط1)، دار الفكر، دمشق، سوريا.

9. طليعات عبد القادر أحمد، (1973)، *وثائق القلقشندي في صبح الأعشى*، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، مصر.

10. عتيق عبد العزيز، (1972)، *في النقد الأدبي*، (ط2)، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان.

11. عزاوي أحمد، (2001)، *رسائل موحدية*، (ط1)، منشورات كلّية الآداب والعلوم الإنسانية، القنيطرة المغرب.

12. عمر موسى عز الدين، (د. س. نشر)، *الموحدون في الغرب الإسلامي تنظيماتهم ونظمهم*، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان.

13. عوض فرحان، (2019)، مفهوم الرسائل وأساليبها عبر العصور التاريخية، *مجلة المعارف*، العدد: 1، الجزائر.

14. عيسى فوزي سعد، (1991)، *الترسل في القرن الثالث الهجري*، دار المعرفة الجامعية، مصر.

15. غربي بغداد، (2016)، الكتابة الرسمية عند الموحدين في الغرب الإسلامي (541. 668هـ/1146 . 1269م) أنواعها، مراسيمها، وأهميتها التاريخية، *الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والإنسانية*، العدد 16، الجزائر.

16. لمين مالك، (2015)، *تحليل النص التاريخي منهج ونماذج*، (ط1)، مطبعة الأمنية، الرباط، المغرب.

17. مريغي ميمون حمزة، (2011)، *دراسات في منهجية البحث التاريخي*، (ط1)، دار الخليج، عمان، الأردن.

18. ميراندا أمبروسيو هويثي، (2004)، (ط1)، *التاريخ السياسي للإمبراطورية الموحدية*، تر: عبد الواحد أكمير، النجاح الجديدة، الدار البيضاء المغرب.

19. مصطفى إبراهيم وآخرون، (1972)، *المعجم الوسيط*، (ج1)، (ط2)، المكتبة الإسلامية، استنبول، تركيا.

-Etude (Ouvrages et articles)

1. Ghouirgate M, (2019), Les citations de lettres de la chancellerie almoade dans les chroniques : rôle, place et fonction narrative, *Arabica*, 66. France.

2. Reinhart P. A. Dozy (D : 1883), (1881), *Recherche sur l'histoire et la littérature de l'Espagne pendant le moyen âge*, Leyde, Hollande.

القواميس اللغوية

1. الزمخشري أبو القاسم جار الله محمود .(1998)، *أساس البلاغة*، (ج1)، تحقيق: محمد باسل عيون السود، (ط1)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
2. ابن منظور محمد بن مكرم بن علي . (د.س. نشر)، *لسان العرب*، تحقيق: عبد الله علي الكبير وآخرون، دار المعارف، مصر.
3. مصطفى إبراهيم وآخرون، (1972)، *المعجم الوسيط*، (ج1)، (ط2)، المكتبة الإسلامية، استنبول، تركيا.